العنوان: ثلاثة أمتار وكبرياء

رأيتكَ نجمًا بين الكواكب

ورأيتني قمرًا لا يمكن الوصول اليه

" نحن لا نختار الحب بل هو يختارنا "

أتذكرُ جملتك هاته بعد أن ألقيتها على مسامعي ورحلت، كنتَ تخبرني بطريقة غير مباشرة أنني لا أليقُ بك وأن القدر لن يجمعنا أبدًا. آنذاك جلستُ متسمرةً أمام كوبِ قهوتي ألملم كلماتك، أحاولُ تركيبها كي لا أخرج محملةً بخيباتِ أملٍ. لكن كلّ الطرق تؤدي الى روما عزيزي فان كان القطار سيرميني بمحطة الألم فعندها ستقفل جميع المناطق وتبقى تلك المحطة سبيلي الوحيد.

حاليًا أجلس في مقهى صدفتنا، أرفعُ ناظري كأنك واقفٌ أمامي، مع أن كلُ ما أراه الآن ليس سوى دخانٍ كنتَ قد نفثته مع كلماتك قبل أن ترحل منذ عشر سنوات. أتناولُ الفنجان شادتًا عليه للأسف لا يمكنني الصراخ، ولا البكاء لا أريد لكبريائي أن يُكسر مرتين في مقهى لقائنا.

المطرُ لايزال يقيدني هنا، لستُ بالعشرين كي أركض أسفل قطراتِ الغيم هذه، لذا يتحتمُ علي أن اصافح زوايا المقهى، أن أطل على كلِّ ذكرى جمعتنا وكلِّ أمسية وعد.

" للأسف تحبين رجلاً لم يقع في الحب مطلقًا، لا يفقه بغزل الحروف شيئًا، يملكُ قلبًا لم يستعمله أبدًا "

طرأت هذه الذكرى بالي، تخبرني فيها عن كوني الحب الأول لك ولكن في الوقت عينه تسترسل الفراق بين كلماتك كأنك تعرفُ مستقبل علاقتنا. كأن البداية ما وجدت إلا لتنتهي! في نظري كنتَ دائمًا ذاك الرجل الكتوم عن مشاعره ولم أكن ابالي ببرودة كلماتك لأن جمر أفعالك كان يسبقك ليخبرني أنك الشخصُ المناسب لي، كأننا قطع أحجية قد اضاعها صاحبها في زوايا المنزل لكن حدث وأن نلتقي في قمامة الحياة.

تنهيدة صغيرة خرجت مني تعبر عن تعبي من التذكر، مرت عشر سنوات وتلك الفتاة التي كانت بزهو عشرينها، اكتسبت من الحياة ثلاثين عامًا من الخبرة الآن لكنها لم تقع بالحب بعدك.

كنتَ خيارها الأول والأخير.

في هذه العشر سنوات، سخرتُ من الحب كثيرًا، كان الخطاب يخرجون من منزلنا كما دخلوا إليه محملين بلا شيء. والدتي تحاول أن تخرجني من متاهة الحياة لا تعلم انني أتوق للموت فيها. خالتي تظن أن في عقلي أفكار انتحارية كثيرة أنتظر الوقت المناسب لأنفذها فقط.

لكني بعمر الثلاثين.

يضحكني كيف أن للعمر دورٌ في تغيير أفكارنا التي قطفناها في براعم المراهقة. يصغر تصرفاتٍ ويكبر قرارات فتمسي الأيام مسؤولياتٍ جارية.

قطع خيط أفكاري ذاك النادل الذي طرق على طاولتي مرارًا ينتشلني من بحر الأثم. قائلاً بصوته الغليظ " الوقت تأخر وسنقوم بإقفال المقهى".

وبتعبيرٍ آخر هو يطردني لكن باحترام، اهمهمُ له متفهمةً ثم ألقي نظرة خارجًا " المطرُ لا يزال يهطل " اهمس في سري واقفةً، أضعُ بضعة أوراق نقدية على الطاولة وأهمُ بالخروج وقلبي ينبض ككل مرة أخرج فيها من هذا المقهى كأني أترك مذكرتي مفتوحة ليقرأها العالم أجمع.

لربما القدر يسخر مني كي يجعل آنسة بعمري والتي من المفترض أن تلقب بسيدة تركض أسفل المطر هكذا! واضعةً حقيبتها على رأسها، أعني لمَ نشرات الطقس فاشلة الى هذا الحد؟ كيف ليوم مشمسٍ أن يتحول لآخر ماطر.

أركضُ كالبلهاء أبحثُ عن سقفٍ يحميني من المطر او بالأحرى يحمي كبرياء امرأة بعقدها الثلاثين من البلل. وأثناء بحثي وجدت مرادي ومرّ حياتي.

قدماي التصقت بالأرض لا تأبى التحرك، المطر البارد أمسى حمم نارٍ تحرقني. ذاك الشعر الليلي المجعد، الأعين التي احترقت حتى أصبحت رمادًا والنمشُ الخفيف الذي أُسقط على وجنتيه الحنطية اسقاط النجوم وأخيرًا سيجارته التي لا تفارق فمه والدخان الذي تصلك رائحته قبل وصول صاحبه.

وللمرة الثانية لهذا اليوم يخبرني القدر انه المتحكم، يبدد صمودي لسنوات بلحظة كنتُ الخاسرة فيها. من بين بقاع الأرض أجمع لمَ علينا أن نتشارك السقفُ عينه؟ أأذهب إليه؟ لا اعلم ان كنت سأترك المطر يكسر كبريائي أو هو لكنه في جميع الأحوال مكسور.

كان ينظر للجهة الأخرى، قررتُ عدم التحرك سأقفُ هنا فقط أراقبه كما كنتُ أفعل قبل لقياه لي. هو لا يعرف بوجودي وأنا لا أبصر غيره..

هذا اليوم لن يكون اسوأ، المطر، الشخص الذي احببته وأخيرًا كبرياء مكسور.

رنين الهاتف أيقظني من بؤرة الشؤم التي كنتُ بها، لم تكن إلا صديقتي. حدثتني بسرعة قد بان عليها التوتر وأنا بين الثانية وأختها أحاول تلقفَ كلماتها.

" اهدئي المطر يمنعني من سماعك"

تنظمت أنفاسها أكثر أم أنا فلاحظت بداية هدوء المطر.

" عماد، عماد لقد عاد من فرنسا "

وتزامنًا مع كلامها، استدار المعني يرمي السيجارة على الأرض ويدهسها برجله فتتصافح أعيننا صدفة، تمامًا كأول لقاء.

" أعلم، هو أمامي الآن "

أجبتها كأن الأمر بديهي، كأنني لم اتعذب لمدة عشر سنوات كي أنساه أو كأنني ألتقي بشخصٍ فارقته أمس. وقبل أن أسمع صراخها أقفل الهاتف بوجهها فتنقطع تلك السيمفونية المزعجة.

السماء أوقفت غيثها، وقعُ المطر انجلى من على مسامعي وبات الهدوء هو كل ما تلتقطه أذناي. وبين الفنية والأخرى يأتيني صرير الصرصار ليخبرني أن الوقت لم يتوقف كما نعتقد بوقفتنا هذه.

الآن الصمت هو لغتنا، أنا وأنت نعلم أن أحاديث الشباب العادية لن تناسبنا.. كل ما يفصلنا حاليا هو ثلاثةُ أمتار وكبرياء.

تخرجُ علبة سجائرك، تُحركها للأعلى والأسفل لكن كل ما تلقاه هو فتات التبغ اليابس. تقبضُ على العلبة بقلة حيلة، أستطيع أن أرى بروز عروق يدك والتي تدل على توترك فيبدو أن عادة تدخينك كلما وجدتَ في موقف لا تحبذه لا تزال مرافقةً لك حتى الآن.

وعادتي في تذكر تفاصيلك لم تبرحني أيضا.

لكني أتساءل حقًا ان كان الموقف هو من لا تحبذه أم أنا!

سلسلة الهدوء تُقطع من قبل خطواتك على بقع الماء التي خلفها المطر، مربكٌ كيف أن الطبيعة تتركُ أثرها هنا بأنانية تجر البشر نحو أقدار لم يتمنوها يومًا.

تقفُ أمامي وعطركَ الرجولي منذ عشر سنوات لايزالُ معلقًا على ثيابي يداهمني مجددًا كي يتمسك بي هامسًا أنه سيكون أنيسي دومًا.

ومن اللاشيء أردفت " كيف حالكِ؟"

متى اعتنقتَ السذاجة لغة؟ أنا وانت نعلمُ جيدًا الكذبة الكامنة خلف الجواب. تعاهدنا ألا نسأل حالَنا عن حالِنا، قلنا إن أحاديث المشاة الغرباء لا يزيدنا إلا نفرًا فما بالكَ تأتيني محملاً بغدرِ العهد؟

لكني سأتماشى معك، لن تكونَ الغريبَ الوحيد على هذا الطريق ولن أكون الوفية.

" بخير وماذا عنكَ؟"

لمحتُ ابتسامتك المرتبكة، أجل لم تعتاد على غادة بعد عقدٍ كامل.

" لازالت النجوم في عينيكِ"

من العدم تعيد جملتكَ لتصف بريق عيناي، ومن العدم توقعني في شباك حبك مجددًا ولكني سمكة لا تقع لنفس الصياد مرتين.

" ولا زال الدخان عطركَ المفضل"

قهقهة خرجت منك، النساء يكرهن رائحة الدخان المعلقة بالرجل لكن بالنسبة لي هي لا تزيده إلا رجولة ولا تزيدني إلا توقًا إليه.

يعود الصمت ليخيم أجواءنا، أعيننا فقط من تتكلم عند كل مصافحة، عند كل بريقٍ تائه وعند كل عتاب. في بالي صحراء من الأسئلة، لا تعلم ان كانت كثيرة أم قاحلة لأنها صحراء!

" لقد تأخر الوقت علي الذهاب كما يتوجب عليك المثل "

في النهاية وككل مرة أنتَ ستنهي الصمت، أنت من تبتدي المحادثة وأنت من تنهيها، أنت من تتحكم بكل شيء. أما أنا فعلي الوقوف بمكاني أراقب ظلك الى أن يختفي في الردهة ومن غير وعيّ كنتُ ألوح لكَ كأنك تناظرني، ألوح لشبحك وسراب عطرك.

ألوحُ لكل شيء عداك..

عاد المطر لكني تصرفتُ كامرأة كبيرة، لم أركض ولم أضع الحقيبة فوق رأسي. كنتُ فقط أتمشى مصاحبةً لقطرات المطر وفي الحقيقة لم أبدو كسيدة بعمرها الثلاثين بل كأنثى ترملت في ليلة عاصفة بعد استشهاد زوجها. وأصبحت بدل السيدة أرملة.

تلقفتني أمي من على الباب بملامحها المذعورة، تعاتبني انني لم أاخذ المظلة معي كما أخبرتني. أمي لم تثق يومًا بنشرات الطقس بعكسي كنتُ أضع ثقتي بأشخاص لا يجب أن أضعها بهم.

هذه الليلة بكيتُ بحضنها على عتبةِ بابٍ من المفترض أن يكون بيتي، لكني فضلت النحيب خارجه كي لا ألوث بهجة المنزل بدموع لغريب. أنوحُ وتكفكفني، تارة تربت على رأسي وأخرى تمسح على ظهري. هي تظنُ اني أبكي لأن الكحل قد لطخ انوثتي لا تعلم أن ما لطخ هو كبريائي من نفس الغائب بعد سنوات.

مرت الأيام يا عزيزي، مرت ومررنا معها وكي أشغل بالي عنك كنتُ أبقى في مكتبي لمنتصف الليل غارقة بين أوراقي وحبري. نحنُ الكُتاب دائمًا ما نضع لأبطالنا نهاية سعيدة ترضي الجميع لكننا لم نستطع أن نرضي أنفسنا في الواقع، حتى أننا لم نكن يومًا أبطال قصتنا فمهمتنا الوحيدة أن نروي ونخلِقَ أكاذيبًا جميلة كتضحية حب أو " عاشوا معًا للأبد " الحب لا يحتاجُ الى تضحية والأبد غير موجود.

ذاك المقهى لم أعد أرتاده منذ آخر لقاء، يبدو أن لعنةً قد ألقيت عليه. لعنة لجعلنا نلتقي مجددًا وهذا ما لا أريده حقًا. أتساءل ان كانت الخرزة التي أضعتها لاتزال هناك أو أن ذاك النادل قد رماها لأنه كرهني حقًا ففي النهاية كنتُ زبونة تبقى لآخر الليل فيضطر أن يرافق ليلي أيضًا.

أنزع نظاراتي أفركُ عينيّ قليلاً، لقد تعبتُ! حتى الكتابة أصبحت سجنًا آخر يقيدني بك وفقط لك. أحاولُ أن أستجمع آخر ذرة صمود بي، أتمسكُ بها جيدًا كي لا أسقط في مستنقع الألم مجددًا ولكن على من أضحك؟ ها هو هاتفي يهتف باسمك حتى رقمك لم يتغير.

انها الساعة الثانية عشر، هذه الساعة ليست للغرباء ومن المفترض أن وقت اللباقة واحترام راحة الغير قد انتهى منذ خمس ساعات فلمَ تراه يكلمني؟

في الأصل لمَ تراه يحتفظ برقمِ امرأة لم تناسبه يومًا؟

كبريائي لم يسمح لي أن أرد مباشرة عليك، على الرغم من أن هذا الانتظار يؤلمني أكثر مما يؤلمك وهذا الجمرُ المتقد أسفل أناملي يحثني على الرد وبعد ثانية اثنتين ثلاثة ودقيقة " مرحبًا من معي؟"

أسمكَ مسجل بهاتفي يسطع ليؤلم قلبي قبل عيني لكني لن أبوح أبدًا أنني احتفظتُ بكل كلمة قلتها لي.

وبصوتك العميق عرّفت " أنا عماد"

" نعم عماد كيف أساعدك؟"

أخبرتك بلا مبالاة، في بالي كان من المفترض أن يكون لقاؤنا أجمل حتى لو لم نعد أحباب كنتُ أطمح للقاء لائق لكن لقائنا توأم وداعنا : مرٌّ وجاف.

" أيمكننا أن نلتقي غدًا؟"

كي تضع نهاية أخرى؟ لا يا عزيزي طيني متكبر.

" لا "

هدوء مربك خيم لحظاتنا، أسمع تنفسك الثقيل والذي أصبح أثقل بعد اجابتي حتى أكملت

" بعد غدٍ سيكون جيد "

تنهيدة راحة خرجت من ثغرك ويمكنني الجزم أنك تدخن فبين الفنية والأخرى كنت تطلق تصفيرًا هامسًا يدل على الموقف غير المحبب الى قلبك.

وقبل أن تعلن انت النهاية، ودعتك على الرغم من أن التيار كان يشدني نحوك وعكس كل ما أبتغي.. انه لمن الجنون أن أرافقك في يوم الأربعاء الى مكان لم اسألك عنه بعد لكنني أعلم جيدًا أنه عينه المقهى الذي حُلت عليه لعنة حبنا. وانه لمن الغباء أن يكون الوقت هو الرابعة عند التقاء الأحباب قبل الغسق لكننا لا نعرف غير الأربعاء ولا نعرف غير الرابعة.

في يساري قلب ينبض أحبًا لك أم خوفًا منك؟ أقولُ أن علي التصرف كامرأةٍ ناضجة لكن القدر وفي كل مرةٌ يعيدني الى جانبك طفلةً جاهلةً للاتجاهات لا تعرف يمينها من يسارها لكنها ستقطع الشارع رغم غفلها عن كل تلك المعلومات.

لن أضع حزامي هذه المرة حتى لو أخذتني القافلة الى الموت.

لقد انتظرتُ الأربعاء بفارغ الصبر، يبدو أن الانتظار هو كل ما أعرفه من هذه الحياة ويبدو أنه من الواجب على كل امرأة أن تنتظر فقيدها ربما الى أن تفقد نفسها في متاهة الوقت.

أخرجُ ثوبًا وأُدخل آخر، أألبس الأسود كي أنعي العشر سنوات التي انتظرتك بها؟ أم أنتقي الأبيض وأزف اللقاء زفة العروس؟

أغمضُ عينيّ وأمد يدي لأي ثوب قد تلتقطه، لا أظن اللون يهم دام الرماد هو كل ما في داخلي سواء أكان أسودًا أو أبيضًا ما حُرق لن يترمم والانتظار قد أخذ من عمري أكثر مما أخذت منه.

تلمست أناملي ذاك القماش الرقيق، وقبل أن تلتقطهُ عيناي عرفت أنه الفستان عينه الذي أهداني اياه في يومٍ كان من المفترض أن يكون عيد ميلادي لكن فيما بعد علمتُ أنه عيدُ موتي وبدل أن تقولَ لي " كل عام وأنتِ بخير " أتيتني ولوح لي ثغرك بجملة " كل عام ووداعنا سعيد. "

لم أشأ أن اتجاهل قوانين القدر، ما يطلبه مني سأفعل حتى لو كان جنونيًا تمامًا كما الآن فمن سيلبسُ فستانًا قد أهداه اياه حبيبه السابق عند اللقاء؟ لكن لا بأس التمام الغرباء هذا من بدايته لم يكن صحيح، لنخرج عن السكة هذه الليلة، لنخرج كأننا جاهلين لقصص الحياة وألغازها، كأننا لم ننثر ترابًا على متارعنا وكأننا لم نخض يومًا مآتمنا لنخرج كأن لا عقل لنا فلا عتاب على المجنون.

كعبي العالي قد أعلن ترانيمه على خشبة المقهى، كل أمرؤ فيه قد التفت الي يحدق. ولا ألومهم فمن يراني يظن أنها ذاهبة الى عرس ما او هي نفسها العروس، يظنوني أعيش أجمل أيام حياتي وأبهاها أما الحقيقة فأنا بفستاني الكُحلي هذا أشبه الفضاء لا مزاج له، فارغٌ إلا من بعض النجوم والكواكب التي تجعل الناس تُفتتن به.

لم أبحث عنك كثيرًا فالزاوية وفقط الزاوية هي أفضل مكانٍ لنا، كأننا مخبئين من تُراهات البشر وكلامهم اذ كنا مراهقين آنذاك نخاف من القيل والقال الذي قد يصل الى والدينا. لكن الآن لا أعلم ما نخافه!

لربما ظلال أنفسنا..

أزيل شال راحتي من على عنقي واضعةً التوتر رائحة بيننا، أجلسُ أمامك كأنما الموت قبالتي، تُعانق كفي أختها مخبئةً اياهم في حجري أما حقيبتي فقد لقت مكانها ككل مرة الى جانبي فهذا ما تفعله النساء.

" قهوة أم شاي؟ "

تقولها بابتسامتك وهلال عينيك، ووددت لو أجيب ‹ بخير › أوليس ‹ كيف حالكِ › هي افتتاحية كل حديث؟ أم لأننا لم نعد شبابًا باتت أساليبهم لا تعنينا كأنما لم نكن منهم يومًا؟

" قهوة مرّة "

أرى الاستغراب قد احتل على بعض معالمك لكن سرعان ما تبدل بقهقهة تلتها جملة " تغيرتي ". كان من الغريب على فتاةٍ تكره القهوة أن تصبح من أحد المهووسين بها والأغرب أن تكون مرّة، في النهاية عشر سنوات كانت كفيلة بقلب حياتي.

جاوبتك بمزاح " كبرنا يا عماد " وقد قصدت قول أسمكَ لكي تعرف أن خلف نبرتي المازحة، أطنان من الخيبة قد وجدت لها مترعًا بين مقلتيك.

ترفعُ يدك مناديًا النادل الذي رمقني بنظراته الغريبة، لا ألومه فدائمًا ما أتيتُ وحدي لمدة عقد كامل لذا من غير الطبيعي أن يراني مع شخصٍ ما. أجل من غير الطبيعي وليس من الغريب لأن لا غريب هنا.

" ما بها مجرتاكِ انطفئت؟"

" تساقطت نجومها وهجرها القمر"

ابتسامة هادئة قد نُقشت على محياك، دائمًا ما حاولت حشري بأسئلتك الغير اعتيادية ولكني كاتبة يا عزيزي أرد كلماتكَ ببلاغتي " على الأقل أجوبتكِ لم تتغير"

" نحنُ نتغير عندما يذبل شغفنا نحو أمر معين "

أتى النادل ووضع أمامي كوب قهوتي وأمامك الشاي، حملته بين أناملك ترتشفه اما أنا فكنت أحدق بالبخار الصادر عن الكوبين ويبدو انني من يحترق أكثر. وضعتَ فنجانك على الطاولة وحدقتيك لم تفارق خاصتي وهذه احدى عادات المنفصلين " اعلان حرب العيون. "

" اذًا هل ترين أن علاقتنا قد ذبلت؟"

" قُطفت، كانت بأوج نضوجها إلا أنها اقتلعت من ترابها "

أومأت لي بهدوء ليعود الصمت هو حديثنا، للآن كنتُ خائفة أن أرتشف قهوتي فبيني وبينها علاقة قوية إذا بدأت قد تنتهي قبل كلماتنا الخرساء. لكن كالعادة كنت تكسر هذا الهدوء، دائمًا ما تعجبت كيف لك أن تجد كلماتك وسط جمود الأحرف وغيابها؟ افتتاح موضوع كان أصعب من أن أخط بكتابٍ كامل على ورقي لكن ها أنت تنقذني من هذه المهمة الصعبة مجددًا وتكرارًا!

" اذًا هل ماتت؟"

سألتني تقصد فيها علاقتنا

" خبأتها بين صفحات كتابي "

" اسم الكتاب إن سمحتِ ورقم الصفحة "

قهقهتُ على اصرارك الكبير، للحظة كنتُ أفكر هل أنت نفسه الشخص الذي طلب الانفصال؟ من يرى تصرفاتنا الآن لقال إنك المظلوم وأني من أردت الابتعاد!

" عذرًا يا سيدي، هذا الكتاب ليس للبيع قارئه الوحيد هو الكبرياء "

وضعت رجلاً على رجل، تسحب سيجارةً بيد والأخرى مشغولة بإمساك كوب الشاي والذي استطاع أن يسرق نظركَ الجاثي نحوه " اذًا لن تخبريني".

بدوري ارتشفت الهواء من قهوتي التي قاربت على الانتهاء وبثقة كبرياء امرأة أخبرتك " لربما لاحقًا " كأنني أطلب منك أن نلتقي مرة أخرى او بالأحرى أقيدك بلقاءٍ آخر لنا وكلماتي الآن ليست سوى عربون أرده عند ثاني تصافحٍ لأعيننا.

أومأت لي بهدوء تتصفح أركان المقهى، رماديتاك راحت تلقي برمادها عند كل زاوية ومن يراك يظن أنها أول مرة تأتي بها الى هنا غيرَ عالمٍ أن صبا أيامك قد تشابكت مع أنفاس هذا المقهى الرتيب. وأثناء تجول عينيك هنا وهناك قلتَ " لم يتغير كثيرًا".

" قالبًا أجل لايزال عينه "

" وقلبًا؟"

" تغير مع قلوبنا "

إسترقتَ النظر الى عسليتي وبدل أن تتلاقى أعيننا، تلاقت أرواحنا. كنتَ تنظر الى ثقبٍ ما داخلي ففي النهاية أنتَ تجيد لغة العيون، اللغة الوحيدة التي لا تجاري كذب صاحبها ولمَ؟ لأنها وبكل بساطة مرآة الروح.

" شيءٌ ما كُسر، شيءٌ لا يُرد "

ضحكة ساخرة خرجت بقصدٍ مني، وكأنك لا تعلم ما سبب هذا الانكسار أولستَ من رحلت معالمه عني في لحظة أردت زيارتها وتقتُ لها؟

" ليست كسورًا بل ندوب، الندوب هي الجواب الوحيد الذي يخبرك أنك تخطيت، أنك نجوت "

توقفتُ قليلاً وبالأحرى تسمرت كلماتي بين غصةٍ وبحة، شددتُ على فنجاني رحتُ أبرمج كم المشاعر التي داهمت قلبي بعد أن دفنتها عميقًا قبل عشر سنوات، شريط الصبا قد تجسدَ أمامي والكبرياء الذي اتخذته سورًا ها هو يترنح.. يترنح لكنه لن يُهدم! رفعتُ رأسي مقررةً أنا أنظر بدوري الى روحك من الثقب عينه وأكمل " عادة أصعب ما يواجهه الانسان أن ينجو من نفسه، أليس هذا ما سمعناه؟ عندما يُقال إنك عدو ذاتك الأول، في بعض الأحيان أتساءل ان كنتُ قد اعتبرتكَ نفسي أو من الآخرين أنجيتُ مني او من الآخرين؟"

راقبتُ بؤبؤ عينك كيف تزحزح من أحرفي، دائمًا ما كان عمقي معاكسًا لسطحيتك. أنا فتاة الفواصل، النقاط والحركات، أُدقق بالتفاصيل بل واحفظها ومن الجهة الثانية هنالك أنت، فتى الأرقام، المنطق والحقائق، لا شيء يستدعي دقتك فالحقيقة تظهرُ بحتة أمام مرآك.

دائمًا ما كنتَ أنت البصر وانا البصيرة فلم تستطع القاء نفسك في بحري ولا استطعتُ أنا أسبح نحو سفينتك.

" لربما نجوتي من كلانا، أنقذتي نفسك من القدر وفي كلا الحالتين أنتِ نجوتي "

أخرجتَ من جيبك خرزةً ياقوتية اللون، وبعد تدقيقٍ بها كانت لي. وضعتها أمامي على الطاولة وبحركة تلقائيةٍ من امرأة تتشبث جيدًا في ممتلكاتها قمتُ بسحبها لتحتضنها كفي. لجزء من الثانية تلمست أناملي خاصتك، قبل عقدٍ من الآن كان هذا كفيلاً بشتل الحب مرة اخرى داخلي أما الآن فهو لم يزحزح ذرةً مني فكبريائي تخطاك.

" لقد وجدتها ملقاة في زاوية المقهى عندما زرته مسبقًا، لم أتوقع أنكِ ستحتفظين بشيء أهديتكِ اياه "

" لمَ لا أحتفظ بها؟ لقد دفعت ثمنها عمرًا هي ملكي الآن أيها الصائغ "

" يُسعدني أن اولى أعمالي تقطن بين يديكِ "

قلتَ لي نافسًا الدخان الأبيض من رأيتك ثم وقفتَ فجأة " أنتمشى؟ الجدران ضاقت عليّ وبي " أومأتُ بتفهمٍ حاملةً حقيبتي وقمتُ بالدفع عني وعنك.

رحنا نمشي بمحاذاة طريق المقهى، أنا يمينكَ وأنتَ يساري تمامًا كما كنا قبل عشر سنوات. تارة تخرج منا ضحكة وأخرى همسة، تارةً أضربك على كتفك أخرى تتصدى لها ثم تارةً أشعر أني امرأة بشتائها الثلاثين وأخرى فتاة بربيعها العشرين. لم أفهم يومًا التناقض الذي أمتثل بي، بجانبك كان الخطأ صوابًا والطرقات متاهات، كان الأناس هلوسات فلم أبصر غيري وغيرك.

" لمَ أحببتني ثم تركتني؟"

توقفتُ فجأة وسط الطريق وكنتَ أنت على بعد ثلاثة أمتار مني، هذه المرة لم يكن الكبرياء بيننا بل الحقيقة، لم أعد أريد أن أكون رزينة في تصرفاتي ولا حكيمة في تفكيري، لم أعد أريد أن أكون امرأة تخاف تلطيخ كبريائها. لا بأس بالجنون لمدة قصيرة أليس كذلك؟

"أحببتكِ لأنكِ قطعتي المفقودة، تختلفين عني بكل شيء، نحن روحان معاكسان كالمغناطيس تمامًا ننجذب الى بعضنا"

" لمَ تركتني اذًا؟ "

" القدر يلعب دوره فشاء أن يأخذني منكِ ثم يرميني بحفرةٍ ضيقةٍ تخبئ نوركِ عني "

دمعة، اثنتان والثالثة قد قاطعتها نبرةُ عجوز تسألني " ما بكِ بنيتي تبكين هنا لوحدك؟"

كنتُ أريد أن أخبرها أنكَ معي، أنكَ تقفُ تمامًا مكان وقوفها والبقعة التي من المفترض أن تكون أنتَ فيها هي التي تشغلها الآن.

هذه المرة عند رحيلك لم أتمكن من التقاط رائحة دخانك كي اكفكفها عميقًا في روحي، لم تقل لي وداعًا فكُسر كبريائي لمرتين!

أتاني النادل راكضًا نحوي يلوح ببضع أوراق نقدية " آنستي لقد دفعت عن شخصين رغمًا أنكِ لم تطلبي سوى فنجان قهوة لا غير، تفضلي الباقي"

وهذه لم تكن سوى محادثةٍ وهميةٍ أخرى قد نسجها عقلي.

أم أقول مرضي؟

" أحدثتيه عما كنتِ تريدين قوله له قبل رحيله؟"

سألتني المرأة المقابلة لي، تجلسُ واضعةً رجلاً على أخرى، تثقبني بمقلتيها وتقوم بتحليل كل رمشةِ عين أقوم بها! تنظر الى كل بقعة في جسدي وتفككني ثم تحلني كأحجيةٍ ما. جميع أطباء النفس يبدون هكذا، فضوليين لمعرفة ألمك، يدخلون قاعك ذاك الذي لم تصله أنت حتى.

" ربما، لقد حَدثتُني كثيرًا ولم أحدثه كثيرًا لا أعلم "

أمامها لا يمكنني إلا أن أكون أكثر شفافية، المحادثة الوهمية التي نسجها عقلي كانت محادثة لذاتي أما حواراتي معه كانت قليلة.

"فيكِ الكثير من الكلام له، الكثير مما وددتي أن تخبريه اياه قبل أن يموت لكنكِ تركتِ بعضه للقاء آخر لذا ألا تظنين أن ذاك اللقاء قد حان؟"

" لم أفهمك "

"لفترةٍ طويلة عشتِ في الوهم، تأملين أن تلتقين به ولكن حتى للأمل منطقه! هو مات منذ عشر سنوات بمرض القلب، لم يتركك لقد أخذه القدر منكِ لذا ألم يحن الوقت لزيارة قبره لأول مرة؟"

أغمضتُ مقلتاي بتعب، لم أكن سوى امرأةٍ مجنونة تتخذ ثوب الثلاثين مبررًا لتصرفاتها. وبالأحرى كنتُ ضحيةً لمرضى الذهان والذي تشخصتُ به بعد انهياركَ أمامي في ذاك المقهى المشؤوم..

خرجتُ من العيادة أجر محادثتي مع الطبيبة في عقلي، كل أفكاري شدتني الى مترعكَ وها أنا الآن أزوركَ لأول مرة بعد عشر سنوات وها نحن الآن نلتقي منذ عقد.

لقاءً فعليًا..

أضعُ خرزتنا على تُرابكَ الناشف، لم يعد يوجد من يأتيك لربما أصبحت ذكرى يتذكرونها في الأعياد مع تاريخ موتك قد دُفن معك، لربما السنين كفيلة بأن تُنسي الانسان وتنساه لكنها شبثتكَ على أغصان عقلي.

أقفُ بعيدةً عنك بثلاثة أمتار وكبرياء، كبرياء حبنا الذي انتفض داخلي. هنالك الكثير مما أود قوله، لكن الصخرة المكتوب عليها اسمك تصفعني بالحقيقة دومًا بأنك لن تعود. مع ذلك أنا ممتنة حقًا لقد زرتني كثيرًا في محادثاتي الوهمية، كنتَ تجلب معك الحوارات القيمة وكنتُ أتنصتُ بحواسي الستة: هيئتك، رائحتك، صوتك، ملمسك، مرّك ومشاعري.

"سألتكَ لمَ أحببتني ثم تركتني؟ لكني سأجيب عني الآن، أحببتكَ لأن وسط برودتك وجدتُ لنفسي الدفء، وسط هدوئك كنتُ الجنون الوحيد ووسط منطقك كنتُ الخطأ الصحيح لك. أستعملُ دومًا كلمة رحيل بدل موت لأني لا أريد تصديق بعدك، لكن الآن سأتركك! لن أصنع المزيد من المحادثات الوهمية لأنكَ لست وهمًا، أنتَ حقيقتي الجميلة وحبي الأول والأخير"

الثلاثة أمتارٍ هذه تقلصت الى أن أصبحت التربة ملتصقةً بظهري، رفعتُ نظري نحو السماء لتقابلني هي بنجومها، بظلمتها وقمرها تمامًا كما قابلنا بعضنا، تشبثتُ بالقليل من رمسِ قبرك وسقيتُها بعبَراتٍ كانت من المفترض أن تصل منذ عقدٍ.

نسيتُ أن أخبركَ كتاب ثلاثة أمتارٍ وكبرياء، الصفحة رقم اللقاء" "